لماذا انهزمنا ؟

ما موقفنا بعد هذه النكبة الكبرى ؟ نكبة ٥ حزيران (يونيو) [١] ١٩٦٧ ، وهى النكبة الثانية أو الثالثة فى أقل من عشرين عاماً ؟ من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧

ما موقفنا ؟ وما دورنا ؟ وما نصنع وقد خابت آمال كبار ، وتبخرت أحلام عذاب ، وتهاوت آلهة كان قوم منا يطوفون بها ويرجون نفعها عند الشدة ، وعونها عند الكربة : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ ! [٢] .

هذا هو السؤال الذى يدور على كل لسان ويجول فى كل فكر ، ويشغل كل منتدى ، ما موقفنا وماذا نصنع ؟ ماذا علينا لنغسل العار ونحرر الديار ، ونطرد منها اللصوص الغاصبين ونردها إلى أهلها الشرعيين ؟

---

(١) وهى التى سموها « النكسة » ولا أدرى لماذا ، هل انتصرت قضية فلسطين قبل ذلك ثم انتكست فى حزيران ؟ اللهم إلا إذا عدُّوا وجود البوليس الدولى ، وضياع مضايق تيران وشرم الشيخ فى ١٩٥٦ انتصاراً ظفرت به قضية فلسطين .. أما الواقع فالقضية الفلسطينية تسير - على أيدى هؤلاء - من سيئ إلى أسوأ ، ومن أسوأ إلى الأسوأ !

(٢) هود : ١٠١

والجواب الذى لا يختلف فيه اثنان : إن علينا أن نفعل ما يفعله العقلاء إذا تورطوا فى المضايق وأحاطت بهم الشدائد ، وسُدَّت عليهم المسالك : علينا - قبل كل شىء - أن نفكر . وألا تمر بنا الأحداث الضخام ونحن فى غفلة لاهون وفى غمرة ساهون .. علينا أن نفكر فى نكبة الأمس لنستخلص عبرة للغد . ولا نكون كالذين وصف الله موقفهم من عبر التاريخ فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (١) .

وليس مطلوباً منا أن نسير فى الأرض ولا أن نضرب فى أرجائها لنرى ونسمع ونعتبر ونعقل ، فنحن نعيش فى قلب العبرة ، بل نحن أصحابها وصُنَّاعها .

وإن أمة دعاها كتابها إلى التفكير والنظر فى عشرات الآيات من شتَّى سوره . وجعل دينها التفكير فريضة وعبادة ، وتعلمت من تراثها : أن تفكير ساعة خير من عبادة سنة - لجديرة أن تدع الارتجال والتهريج ، وتفكر لغدها بأناة وعمق ، وأن تثبت وجودها بحسن تفكيرها . فمَن قبل قال ديكارت : « أنا أفكر . إذن أنا موجود » .

---

(١) الحج : ٤٦

وإنى أخشى أن يقول فينا قائل : أنتم غير موجودين لأنكم لا تفكرون .

وأول ما يجب علينا أن نفكر فيه ، أن نسأل أنفسنا : لماذا انهزمنا ؟ فمن الذى لا يعرف لماذا انهزم لا يعرف : كيف ينتصر .

لا أريد أن أسأل عن هزيمة سبع دول عربية سنة ١٩٤٨ ، فقد يكتفى الكثيرون بأن الذين سببوا الهزيمة لفظتهم الشعوب وكنسهم التاريخ بمكنسته وأصبحوا نسياً منسياً . ولا داعى - على أية حال - لنبش القبور واستثارة الرمم .

وإنما الذى يعنينا هنا أن نسأل . لماذا انهزمنا فى ١٩٦٧ وبعد تسعة عشر عاماً من النكبة الأولى ، وبعد أن قامت في عدد من البلاد العربية حكومات ثورية تقدمية متحررة ! تنفق على ميزانيات جيوشها مئات الملايين فى تسليحها وتدريبها وإعدادها ليوم اللقاء ، وساعة الثأر !!

* * *

• ألوان من التفكير فى سبب الهزيمة :

أعرض هنا - بكل أمانة - ألواناً من التفكير ظهرت بعد النكبة الثانية تحاول أن تفسر الواقع وتعلله : وهى ألوان بعضها يستدر الدمع ، وبعضها يستفزغ الضحك من الأفواه . وشر المصائب ما يضحك .

● هزيمة ولا هزيمة :

كان من غرائب التفكير ما سمعناه بعد النكبة من بعض المسئولين فى أكثر من بلد عربى : إننا لم نُهْزَم ولم نخسر المعركة !

قال هؤلاء : إن العدو يهدف إلى إسقاط النظام الثورى قبل أن يهدف إلى احتلال الأرض ، فإذا بقى النظام - رغم خسارة الحرب - ولم يسقط ، فقد فشل العدو ، وعاد مدحوراً مخذولاً [1] .

هذا هو المنطق السحرى الذى روّجه هؤلاء : إن احتلال الأرض ليس شيئاً مهماً ، وخسارة الأرض ليس لها قيمة كبيرة ، إذا بقى النظام الحاكم . وإن كانت هذه الأرض أضعاف مساحة إسرائيل ، وإن كان حجم الخسارة ما بين القنطرة والقنيطرة !

فيا عجبا ! أليست قضية فلسطين من أساسها قضية أرض احتلها عدو ؟ وهل قامت الصهيونية إلا من أجل الأرض ؟ وهل الأوطان التى يدافع عنها الناس ويقاتلون عليها إلا أرض ؟

وهل صحيح أن الأنظمة الثورية العربية تعاديها إسرائيل وتخاصمها إلى حد إشعال الحرب من أجل إسقاطها ؟ وهل الزعماء الثوريون هم « البعبع » الذى تخافه إسرائيل وترهب سطوته ؟ وهل

---

(١) كان الحكم الثورى فى سوريا أول مَن أوحى إليه باستخدام هذا التعبير المبدع ! ثم ردده آخرون !!

فى تاريخ الثوريين وموقفهم من قضية فلسطين ما يؤيد هذا المنطق العجيب ؟

كلا . فليس هناك أفضل من هؤلاء الثوريين لإسرائيل . فهم فى شغل عنها بمحاربة القوى الوطنية المخلصة واضطهادها وكتم أنفاسها . هم فى شغل عن تعبئة الأمة بشئون الحزب ، وعن آمال الشعب بمطامع الفئة الحاكمة ، وعن قتال إسرائيل بقتال الرجعية المزعومة . فالحزب عندهم فوق الأمة ، والحكام (الثوريون طبعاً) فوق الشعب . والمذهب فوق الدين ، والرجعية أخطر من إسرائيل .

ولا عجب أن قيل فى بعضهم : إنهم لم يحاربوا ، ولا ينوون أن يحاربوا [1] .

ولا نقول لهؤلاء الثوريين : ما ذنب النظام الأردنى - الرجعى - حتى يُضرب هذه الضربة ، ويفقد الضفة الغربية والقدس ؟ أم لعل رأيهم تغيُّر فى حكم الأردن وملك الأردن ؟!

* * *

(١) هكذا قال الرئيس المصرى فى ثوريى سوريا .

● حكاية التدخل :

ذاك لون من المنطق المتبجح الجرىء الذى سمعه الناس بعد الهزيمة : إننا لم ننهزم .

ومثل هذا المنطق فى العوج : منطق الذين اعترفوا بوقوع الهزيمة ، ثم اخترعوا لتبريرها وتعليلها حكاية التدخل الاستعمارى الأمبريالى الأمريكى .

والذين اخترعوا هذا وأذاعوه يعلمون أنهم كاذبون [١] ، ولكنهم خجلوا كيف يواجهون الشعب بعد أن ملأوا الآفاق بالتهديد والوعيد ، فهداهم الشيطان إلى هذا « المخدر » الذي ثبت فشله وبطل مفعوله بسرعة .

ولو صحّ أن تدخلاً استعمارياً حدث ، فهل هذا عذر يعفى أصحاب السلطان من المسئولية ؟ كلا ، فالمفروض أن مثل هذا يُتَوقع ، ولا بد أن يُواجَه كل احتمال بالاستعداد ، وطالما قال الذين يملكون القول : سنؤدب إسرائيل ومَن وراء إسرائيل .

---

(١) ثبت يقيناً كذب هذا الادعاء من مذكرات الملك حسين عن حرب « حزيران » وكتاب « المؤامرة ومعركة المصير » للسيد سعد جمعة رئيس وزراء الأردن ، وقت الحرب .

ومهما يكن فقد تراجع الذين اخترعوا هذا « المخدر » عنه واعتذروا عن صنعه وترويجه . فلا داعى إلى الإطالة فيه .

* * *

● نكبة سببها غلطة :

وإذا كانت الهزيمة حقيقة واقعة - على مرارتها - ولم يكن سببها التدخل المزعوم . فما سببها إذن ؟ وقد استعددنا لها تسعة عشر عاماً ، واشترينا لها السلاح من كل مكان وأعددنا لها قوى البر والبحر والجو ؟

هنالك طفق الكُتّاب والمعقبون يفتشون عن سبب هذه الكارثة التى لم تكن متوقعة إلا عند قليلين ، ذوى البصائر ، الذين يفقهون سنن الله فى خلقه ، ويقيسون قوى الأمم والجيوش بالكيف لا بالكم ، وبالروح لا بالمادة ، وبالمعنى لا بالصورة ، وبالعمل الهادىء لا بالصياح المدوى .

قال بعض الكاتبين : إننا هزمنا بسبب غلطة .. غلطة حربية لا غير ، هى التى جلبت كل هذا العار ، وكل هذا الدمار ، كنا نتوقع أن يأتينا العدو من الشرق أو الشمال فجاءنا من الغرب وأخذنا على غرة وسبق بالضربة الأولى - وهى نصف المعركة كما يقال - وحطم الطيران كله ، ودمرت المطارات قاطبة ، وفقدنا أكبر قوة جوية عربية فى ثلاث ساعات . ثم تتابعت الهزائم ، وتلاحقت

الخسائر . فخسرنا ٨٠٪ من معدات الجيش المصرى - أكبر قوة عربية ضاربة - وغنمت إسرائيل من العتاد والذخائر والتموين ما لم يخطر لها على بال . وسقطت عزة وسيناء والضفة الغربية ومرتفعات الجولان قبل أن تتم دورة الأسبوع ، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام إسرائيل إلى العواصم الكبرى : القاهرة ودمشق وعمان . ولم يكن هناك أية مقاومة لو أرادت إسرائيل الزحف إلى العواصم ، كما اعترف بذلك رئيس مسئول .

كل هذا نتيجة غلطة : ظننا العدو لا يبدأ بالهجوم ، ولكنه خيَّب ظننا وبدأ ، وظنناه - لو بدأ - يأتينا من جهة فجاءنا من أخرى . وكأنما كان على العدو أن يعطينا خبراً مقدماً عن الجهة التى ينوى منها المجيء إكراماً لخاطرنا !!

ولماذا لا نتوقع أن يبدأنا العدو بالهجوم فى أية لحظة ؟ وكيف نستبعد أن يجيئنا من أية جهة ؟ وكيف لا نأخذ لكل احتمال أهبته ؟ لو كان قادتنا يعرفون شيئاً اسمه « صلاة الخرب » فى الإسلام ، وقرأوا ما جاء بشأنها فى القرآن لعرفوا قوله تعالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (١) ولكنهم فى شغل عن الصلاة بالترفيه وأحفال الترفيه .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٠٢ وأولها : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ =

ولو كانوا يفقهون السيرة النبوية لعلموا من غزوة « تبوك » أن النبى ﷺ حين تبين له النيَّة العدوانية عند الروم ، لم ينتظر حتى يغزوه فى عقر داره ، بل أخذ زمام المبادرة ، فبدأهم قبل أن يبدأوه ، وغزاهم قبل أن يغزوه . وكذلك كان موقفه من « هوازن » لما علم بتربصهم ونيتهم هاجمهم قبل أن يهاجموه [1] .

ولو كانوا يقرأون القرآن لوعوا أمر الله تعالى للمؤمنين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [2] .

وأنا وأنت أيها القارىء لا نفهم فى الشئون العسكرية فهم المتخصصين ، ولا ندرى كم كان يجب أن يكون فى الجو من طائراتنا وكم كان يبقى فى مطاراته . ولم نقرأ مذكرات « روميل » و« مونتجمرى » عن حرب الصحراء . ولا نعرف : هل وضع

= فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ .... ﴾ .

(١) قال ابن القيم فى « زاد المعاد » فى بيان ما فى غزوة حنين من العبر : « إن الإمام إذا سمع بقصد عدوه له ، وفى جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم ، بل يسير إليهم كما سار رسول الله ﷺ إلى « هوازن » ، حتى لقيهم بحنين » .

ولكن قادتنا قوم تقدميون لا يليق بهم أن يرجعوا أربعة عشر قرناً ليتعلموا من محمد رسول الله !!

(٢) النساء : ٧١

. ٨٪ من عتادنا فى خط النار مرة واحدة سياسة عسكرية سليمة أم لا ؟ أنا وأنت لا ندرى هذا ولا نستطيع الحكم فيه ، وعلينا أن نسأل أهل الذكر ممن يعلمون .

ولكن الذى ندريه جيداً أن المفروض فيمن يواجهون مثل هذا الموقف أن يحتاطوا للمفاجآت ويعدوا لكل أمر عُدَّته .

والحقيقة أن الهزيمة أخطر وأكبر وأعمق من أن تُعَلل بغلطة عسكرية نشأت من اجتهاد أخطأ . فإنها لم تكن مجرد تقهقر أو انسحاب من معركة ، إنما هو انهيار لم نسمع بمثله . حتى الدول الصغرى التى سقطت أمام الجيوش النازية المباغتة قاومت أكثر من هذا . ولم تسقط بهذه السهولة وهذه السرعة مع أننا نحن الذين بدأنا التحدى واستعرضنا العضلات .

إنها إذن ليست غلطة منشؤها الاجتهاد الذي يُعْذر صاحبه إن أخطأ - أو يؤجر - بل هى جريمة كبرى مصدرها الأنانية والهوى والطغيان .

خذ مثلاً : موقف قادة الطيران الذين قضوا ليلة النكبة فى حفل ساهر راقص ، ونواقيس الخطر تقرع آذانهم ، والعدو واضع أصابعه على الزناد ، والبركان على وشك الانفجار فى أية ساعة من ليل أو نهار . وهل يُعَد سلوكهم هذا اجتهاداً أم جناية دفع إليها انحلال الأخلاق وغلبة الشهوات ، وفساد الضمائر ، وانتقاض عرا الإيمان ؟

ليست المسألة إذن غلطة أدت إلى خسارة الحرب ، فإن هذه الغلطة وما تبعها من غلطات كانت نتيجة ولم تكن سبباً . كانت نتيجة حتمية لحياة واتجاه وسلوك لا بد أن يجر إلى هذه النهاية أو ما يشبهها . ثم .. من المسئول عن هذا الغلط ؟

إن الصياد الذى يصيب إنساناً بطريق الغلط عليه شرعاً أن يدفع ديته مسلَّمة إلى أهله . وأن يكفّر عن غلطه بتحرير رقبة مؤمنة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين .

فكيف بمن قتل ألوفاً مؤلفة وشرد عشرات الألوف وأضاع أوطاناً فسيحة ؟

ولكن المشكلة كيف نعرف المسئول ، وإذا عرفناه فكيف نحاسبه ؟ ومَن يملك محاسبته ؟

وهَبْ أن المسئول الأول عن النكبة اعترف بلسانه أنه مسئول ، وأنه يتحمل المسئولية كاملة . فأين الذى يتولى الحساب ، ويتولى بعده الجزاء ؟

ولكن لماذا الحساب والعقاب ؟ ألم نقرأ فى السيرة أن النبى ﷺ قد انهزم فى « أحد » ؟ أفنحن أفضل من رسول الله وأكرم عند الله ؟

هكذا يتشدق بعض الناس .

ومن المريب حقاً أن قوماً لم يتخذوا رسول الله قدوة فى حياتهم

الخاصة ولا العامة ، ولم يجعلوا سُنّته مصدراً لتوجيههم ولا تفكيرهم ، يعثرون على غزوة « أُحد » وما أصاب المسلمين فيها من هزيمة وانكسار ، فإذا هم يقولون : أننا لسنا أول مَن هُزِم . إن لنا فى « أُحد » أسوة وسابقة . ولو صدقوا لرجعوا إلى أنفسهم باللائمة وتلوا قول الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (١) .

لو صدقوا فى اقتدائهم بـ « أُحد » ، لغيّروا من اتجاههم وأعلنوا ندمهم وتوبتهم وقالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا .

لو صدقوا فى اقتدائهم بـ « أُحد » وأهل « أُحد » لأعدوا أنفسهم لمعركة جديدة ولم يعتمدوا على أوهام بعيدة تعفيهم من تبعات الجهاد المقدس ، ولم يجروا وراء أوهام الحل السياسى وما شابهها .

أما أهل « أُحد » فخرجوا من اليوم الثانى ، وجراحاتهم لم تجف دماؤها ، للقاء عدوهم المغرور بنشوة الظفر : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للَّه وَالرَّسُول من بَعْد مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ ، للَّذِينَ أَحْسَنُواْ منْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ

---

(١) آل عمران : ١٦٥

جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ (١) .

* * *

● الخيانة :

ويسلك آخرون طريقاً قصيرة لتعليل الهزيمة ، فقالوا : إن سببها هو الخيانة .

ومعنى الخيانة : بيع الوطن لإسرائيل فى مقابل كسب شخصى أو حزبى أو طائفى ، ونحن لا نستبعد أن يكون هناك خونة باعوا أوطانهم من أجل عَرَض يسير من الدنيا ، يصيب أشخاصهم أو حزبهم أو طائفتهم . ومَن لا إيمان له لا أمانة له . ومَن لا دين له لا عهد له . ومَن خان اللّه ورسوله لا يكثر عليه أن يخون الأوطان .

ولكننا نستبعد أن يكون الجميع قد خانوا ، فإن تسليم الوطن للعدو لا يقدم عليه إلا فرد أو نفر حاقد على الشعب ، عدو له . وهذا يندر وجوده فى أبناء المسلمين إلا قوماً كفروا بدينهم وآمنوا بعقائد أخرى .

---

(١) آل عمران : ١٧٢ - ١٧٣

فإن صحّ أن جبهة خانت قومها ، وباعت للعدو وطنها - وض المسلمين - فكيف سقطت سائر الجبهات ، وكيف حاقت الهزيمة بالجميع ؟

الحق أن الخيانة - وإن ثبت أنها وقعت جزئياً - ليست هي السبب العام للهزيمة الكبرى والانهيار المروع الذى أصاب الجبهات كلها .

والسر فى تركيز بعض الناس على تهمة الخيانة هو حرصهم على استمرار الأوضاع الظالمة والأنظمة الكافرة فى البلاد العربية كما هى ، وإنما يجب فقط أن تتغير الوجوه والأدوار فوق مسرح السياسة العربية . أما موضوع الرواية فيبقى بلا تبديل ولا تحويل .

معنى الاتهام بالخيانة : أن الأوضاع سليمة والأنظمة لا غبار عليها ، والحكم لا عيب فيه . إنما العيب يتركز فى شخص أو أشخاص إذا تغيَّروا تغير التاريخ وتغير المصير .

وبعض الناس يسهل عليهم أن يخونوا جيشاً بأكمله بل شعباً بأسره لكى يبرئوا شخصاً واحداً من كل تفريط ، ويعفوه من كل تبعة . لأنه عندهم « الإمام المعصوم » والبطل الأسطورى الذى يصيب ولا يخطىء ، ويَغلب ولا يُغلب . فإذا غُلب يوماً فليس العيب منه بل من الآخرين من الجيش أو من الشعب . من الخونة الذين سرقوا منه « خاتم سليمان » الذى كان يصنع به المعجزات ، ويسخّر العفاريت !

* * *

● التخلف الحضارى :

وقال قوم : إن سبب الهزيمة هو : تخلفنا الحضارى ، واختلاف مستوى التعليم بيننا وبين إسرائيل . وإذا التقى مجتمع متخلف ومجتمع عصرى متحضر فالغلبة للمجتمع المتحضر لا محالة .

كتب هذا الكلام بعض « التقدميين » أو « الثوريين » العرب عقب الهزيمة ، فرد عليهم الأستاذ محمد جلال كشك ، بمقال أصابهم فى مقاتلهم ، ومما جاء فيه :

« والخطورة الحقيقية فى هذا التفسير ، تكمن فى أنه يحاول أن يضلل الجماهير العربية عن القضية الرئيسية ، قضية العقيدة .. الدين .

« فليس ثمة خلاف على أهمية الآلات ، ولا أظن أن مجتمعاً من المجتمعات لا يعرف أهمية أن تكون لديه طائرات ودبابات من أحدث طراز ، حتى ولو لم يبذل أى جهد فى امتلاكها .. وشهد الله وشهد التاريخ أن الجماهير ما بخلت بشىء فى سبيل أن تمتلك ، وما رفضت يوماً أن تتعلم .

« ولا نظن أن الجنس البشرى بحاجة إلى مَن يعلمه فضل التكنولوجيا ، وأهمية المخترعات الحديثة .. وليس فى العرب اليوم من يُفضِّل الحمار على السيارة .. أو لمبة الغاز على المصباح الكهربائى .. ولو كان لثوار فيتنام من سبيل إلى قنبلة ذرِّية .. لدفعوا فيها ملايين من أرواح شعبهم .

« لماذا إذن هذا الجدل ؟ وأين هو الكشف العبقرى الذى اكتشفوه .. وهل كنا بحاجة إلى مثل هزيمة ٥ يونيو لنكتشف أهمية العلم ؟

« وما الذى حال بيننا وبين « العصرية » طوال هذه السنوات ؟ وهل عرفنا من العصرية ، إلا منع الطلاق وتعدد الزوجات ، وإنشاء الفِرَق الراقصة ، والهوس فى النقاش حول الاختلاط فى المدارس كأنها قضية مصيرية » ؟

ويمضي الأستاذ كشك فى رده فيقول :

« ما أعجب أن تعمى قلوبنا عن تاريخنا ، فلا نستخلص منه العبرة والتجربة .

« فعندما خرج الحفاة العراة ، رعاة الشاء من الجزيرة العربية يدكون مُلْك كسرى ، ويجبرون قيصر على إلقاء نظرة كسيرة على سوريا ، وهو يقول : وداعاً يا سوريا .. وداعاً لا لقاء بعده .

هل كان العرب متفوقين تكنولوجياً على فارس وروما ؟ هل كان المجتمع الإسلامى - بالمقاييس المادية - أكثر عصرية وتمديناً من المجتمع الرومانى بكل حضارته وعلمه ومدنيته ؟ أم كان أكثر تقدماً وتفوقاً على عرش فارس ومدنية الفُرس ، وعلم الفُرس ، وصناعة الفُرس ؟

« لا .. فالعربى الذى أسر ابنة كسرى ، افتدوها منه ، فطلب ألف درهم ! قالوا : لو طلبتَ مائة ألف لدفعنا .. رد العربى المنتصر : كنت أحسب أن الألف نهاية العدد !

« وحكى عبيد بن جحش السلمى ، قال : « لقد رأيتنا وإنّا لنطأ على ظهور الرجال ، من جيش الفُرس ، وما مسهم سلاح ، قتل بعضهم بعضاً ، ولقد رأيتنا أصبنا جراباً من كافور ، فحسبناه ملحاً لا نشك أنه ملح ، فطبخنا لحماً ، فجعلنا نلقيه فى القدر فلا نجد له طعماً ، فمرّ بنا رجل معه قميص فقال : يا معشر العرب ، لا تفسدوا طعامكم فإن ملح هذه الأرض لا خير فيه ، هل لكم أن تأخذوا هذا القميص ؟ فأخذناه منه وأعطيناه منا رجلاً يلبسه . فجعلنا نطيف به ونعجب منه ، فلما عرفنا الثياب (تأمل) ! إذا ثمن ذلك القميص درهمان .

« بهؤلاء الذين لا يعرفون فى العدد أكثر من ألف .. والذين لا يعرفون الكافور من الملح .. والذين ما كانوا بعد قد عرفوا الثياب .. انتصر الإسلام ، ودُكَّ مُلْك كسرى ، وانتشروا يحكمون الأرض من البحر الأبيض المتوسط إلى أواسط آسيا .. أفكان نسبة هؤلاء للحضارات العريقة المحيطة بهم .. أقرب من نسبة الفلاح العربى للجندى الإسرائيلى ؟

« فلماذا انتصر هؤلاء .. وعجزنا نحن ؟

« لقد فاجأهم الفُرس بسلاح ما عرفوه ولا جرّبوه .. الفيل .. حتى إنه لما جيىء به إلى المدينة بعد ذلك .. طافت به النسوة متعجبات ، وهن يقلن : « هذا من صنع الفُرس » !! ولم يصدقن أنه من مخلوقات الله ! ظنوه آله أو حيلة فارسية ؟!

« ومع ذلك لم يجبنوا ولا فروا أمام الفيل ..

« يروى الطبرى : « ولما رأى سعد الفيلة تُفرِّق بين الكتائب ، أرسل إلى أولئك المسلمة من الفرس الذين أسلموا فدخلوا عليه ، فسألهم عن الفيلة ، هل لها مقاتل ؟ فقالوا : نعم ، المشافر ، والعيون لا يُنتفع بها بعدها .. فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابنى عمرو : اكفيانى الأبيض ، وكانت كلها آلفة له ، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين لينين ودبا فى خيل ورجل فقالا : اكتنفوه لتحيروه ، وهما مع القوم ، فلما خالطوهما اكتنفوهما فنظر كل واحد منهما يمنة ويسرة ، وهما يريدان أن يتخبطا والفيل متشاغل بمن حوله ، فوضعا رمحيهما معاً وفى وقت واحد فى عينى الفيل الأبيض ، فقبع ونفض رأسه ، فطرح سائسه ، ودلى مشفره فنفخه القعقاع ، فرمى به ، ووقع لجنبه ، فقتلوا مَن كان عليه .. » .

« ما الذى يدفع القعقاع وعاصماً إلى مواجهة الفيل الذى ما عرفوه ولا قاتلوه .. بالرماح ؟! وكيف تقوى أعصابهما إلى حد أن يضعا معاً وفي وقت واحد الرمع فى عينى الفيل ! وفوقه

عشرون مقاتلاً ؟! . وما الذى يجعل القعقاع وعاصم اليوم يغادران دبابة زنة ستين طناً من الصلب لو آوى إليها ابن نوح لعصمته من الماء والنار .. إلا من أمر الله .. » [1] .

* * *

● الدين هو السبب :

وأعجب ما قرأنا في تعليل الهزيمة أن سببها هو الدين : الدين ؟!

هكذا كتب الأديب المهجرى المعروف « ميخائيل نعيمة » فى استفتاء أجرته مجلة « الآداب » البيروتية بعد نكبة حزيران . وسكتت عليه المجلة سكوت المقر .

قالت المجلة : ما هو فى رأيكم الدرس الأكبر الذى يحسن بالعرب أن يتعلموه من الهزيمة ؟

وقال الكاتب : « فى رأيى أن الدرس الأكبر الذى يجب أن يتعلمه العرب من هزيمتهم النكراء : أن الدنيا لا تُساس بالدين . فالدين موطنه السماء التى لا يعرفها أحد ، والدنيا موطنها الأرض التى لا يجهلها أحد .. » .

إلى أن قال : « فإذا كان العرب ممن يعتقدون أن حقوقهم لا تُصان ولا تُسترد إلا بالحرب ، وأن الحرب لا يكسبها إلا السلاح ، وأن

---

(١) « الوعى الإسلامى » العدد الرابع والثلاثون - السنة الثالثة - تحت عنوان : « الطريق إلى مجتمع عصرى » .

السلاح لا يخلقه إلا العلم والمال ، فما عليهم إلا أن يتعبدوا للعلم والمال ؛ لعل العلم والمال لا يخذلانهم حيث خذلهم ربهم » !! [1] .

وهذه الكلمات إنما هى خيال شاعر ، لا فكرة حكيم . وهو مع هذا خيال متهافت سقيم . والخطورة - كما قال الأستاذ محمد المبارك [2] - أن يُظن كل أديب كبير ، مفكراً كبيراً . وليس الأمر كذلك . إن الشاعر الذى يعيش هناك وراء البحار ، يظن العرب هنا يقيمون فى زوايا العبادة ، بين ليل قائم ونهار صائم ، ناءت رؤوسهم بحمل العمائم ، وأيديهم بحمل المسابح . فلما شبّت نار الحرب دخلوها وسلاحهم التمائم والتعاويذ . وهذا الخيال كله باطل . فالحكومات التى اشتركت فى الحرب حكومات عصرية تعتمد على أحدث الأساليب ، فى الأسلحة والتدريب ، وهى كلها حكومات علمانية تفصل الدين عن الدولة ، إن لم يقم بعضها باضطهاد الدين والتضييق عليه . ولو أن الشاعر المهجرى قال : « إن سبب النكبة هو التدين المدخول أو الزائف » لكان له وجه .

ولقد كان الشاعر نزار قبانى الذى لم يُعرف باتجاه روحى - كميخائيل نعيمة - أدنى إلى السداد فى تعقيبه على النكبة بقصيدته الشهيرة « هوامش على دفتر النكسة » فقد جاء فيها :

---

(١) مجلة الآداب - عدد تموز (يوليو) ١٩٦٧

(٢) فى كتابه « جذور الأزمة فى المجتمع العربى » .

« لا تلعنوا السماء . إذا تخلت عنكمو . لا تلعنوا الظروف .

فالله يؤتى النصر مَن يشاء .. وليس حداداً لديكم يصنع السيوف » .

وصوَّر الفراغ الروحى والأخلاقى للأمة فقال :

« جلودنا ميتة الإحساس .

أرواحنا تشكو من الإفلاس .

أيامنا تدور بين الزار والشطرنج والنعاس .

هل نحن خير أمة قد أُخْرِجت للناس » ؟

والجواب بداهة : لا . فالله قد خاطب هذه الأمة بقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [1] فأين منا هذه الخصائص والنعوت ؟

ويصف « نزار » التدين الكاذب المنحرف فيقول :

« نقعد فى الجوامع .

تنابلاً كسالى .

نُشطِّر الأبيات أو نؤلف الأمثالا .

ونشخذ النصر على عدونا .. من عنده تعالي » !

---

(١) آل عمران : ١١٠

وعلى أية حال ، قد كان الدين معزولاً - تماماً - عن المعركة ، ولم يكن له فيها دور إيجابى ولا سلبى . لا قبل المعركة ولا فى أثناء المعركة .

كان هناك حرص شديد من أكثر المسئولين على إبعاد العنصر الدينى عن الحرب ، لأسباب واعتبارات لا محل لها هنا .

بل الذى يذكره الشعب العربى - قبل المعركة بأيام - أن الدين كان عرضة للهجوم والسخرية والقذف بالحصى والحجارة حتى اجترأ مجترىء أن يكتب فى صحيفة علنية رسمية هذه العبارات :

« .. والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربى هى خلق الإنسان الاشتراكى العربى الجديد ، الذى يؤمن أن الله والأديان والإقطاع والرأسمال والاستعمار والمتخمين وكل القيم - التى سادت المجتمع السابق - ليست إلا دمى محنطة فى متاحف التاريخ » [1] .

ولقد شهدتُ بنفسى فى قَطَر فى الساعات الأولى للمعركة ، اجتماعاً فى مقر « منظمة التحرير » ضم المئات بل الألوف من الناس ، ووقف رجل عالم فاضل من أهل البلاد يخطب فى هذا

---

(١) من مقال المدعو « إبراهيم خلاص » فى مجلة « جيش الشعب » السورية .

الجمع وكان مما دعا إليه فى كلمته : أن ارجعوا إلى الله وتمسكوا بدينه ينصركم على عدوكم .. فما كان من بعض الشباب المفتونين بعبادة الأوثان البَشرية إلا أن قالوا : لا دين إلا السلاح ؟

هذه هى الروح التى كانت سائدة هنا وهناك . فكيف يزعم زاعم أن الدين سبب الهزيمة ؟!! وأن علينا أن نتخلى عن الدين لننتزع النصر من أحشاء الهزيمة ؟

ثم أى دين يعنيه الكاتب ؟ إنه لا شك يعنى الدين على وجه العموم ، والإسلام على وجه الخصوص . فهو الدين الذى تعتنقه أغلبية الأمة ، وتنص دساتير دولها على أنه دين الدولة الرسمى .

فهل يمكن أن يكون الإسلام سبب الهزيمة ، أى هزيمة ؟ كلا .

وكيف يكون ذلك وهو الذى يقول كتابه : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (١) ويقول : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (٢) . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً ﴾ (٣) .

---

(١) الأنفال : ٦٠ (٢) النساء : ١٠٢

(٣) النساء : ٧١

ويحث رسوله على الصناعات الحربية والفنون الحربية فيقول : « إن اللّه يثيب بالسهم الواحد ثلاثة : صانعه يحتسب فى صنعته الخير ، ومنبله ، والرامى به » ويقول : « مَن تعلم الرمى ثم نسيه فليس منى » . « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمى » .

ويجعل الجهاد جزءاً من شخصية المسلم وحياته فيقول : « مَن لقى اللّه وليس فيه أثر من جهاد لقى اللّه وفيه ثلمة » . « مَن مات ولم يغز ولم يحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق » ويرفض الفكرة الجبرية التى تهمل الأسباب والسنن الكونية بدعوى الإيمان بالقَدَر أو التوكل ، فلما سئل عن الأسباب ، هل ترد من قَدَر اللّه شيئاً ؟ فقال : « هى من قَدَر اللّه » .

وأنكر على رجل غلبه آخر فقال : حسبى اللّه ونعم الوكيل ، فقال : « إن اللّه يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل : حسبى اللّه ونعم الوكيل » .

وحين ترك رجل ناقته أمام المسجد سائبة بزعم التوكل قال له : « اعقلها وتوكل » .

إن ديناً هذا شأنه وتلك بعض تعاليمه ، يستحيل أن يكون سبباً لهزيمة .. أى هزيمة .

* * *

● أخطر من النكبة :

تلك ضروب من التفكير ظهرت على الساحة العربية بعد نكبة ١٩٦٧ ، تحاول تعليلها أو تفسيرها . منها ما هو سيء التصور ، ومنها ما هو سيء القصد ، ومنها ما جمع بين السوءين .

وهذا التفكير الأعوج فى تعليل هذه الطامة أو القارعة هو الذى سماه كاتب عربى مسلم : « أخطر من النكسة » [١] .

وهذا حق . فإن أخطر من المرض أن تظل تتعاطى أسبابه ومضاعفاته من حيث تدرى أو لا تدرى . إن نتيجة هذا السلوك شيء واحد لا مفر منه ، اسمه « الموت » .

وإذا كانت أمتنا لا تريد أن تموت ، فلتفتش عن السبب الحقيقي الذى جرها إلى هذه الهاوية : ما هو ؟ فإن تشخيص الداء ومعرفة أسبابه هو الطريق السليم لوصف العلاج الناجع ، والدواء الشافى .

* * *

---

(١) عنوان لكتاب أصدره الأستاذ محمد جلال كشك منذ أشهر . ويبدو أن الكاتب استعمل كلمة « النكسة » لشيوعها على الأقلام والألسنة .

● السبب الحقيقى للهزيمة :

وإذا لم يكن الغلط العسكرى ولا الخيانة ولا التخلف ولا الدين أسباباً للهزيمة النكراء فيا ترى ما سببها ؟ أم تراها وقعت اعتباطاً بلا سبب ؟

أما نحن فنؤمن بقانون السببية ومبدأ العليَّة فى الكون كله . فلا يحدث فيه حَدَث صغر أو كبر إلا بسبب ، فيكف بحدث ضخم كنكبة ١٩٦٧ ؟

وأما ما هو السبب الذى أنتج هذه الكارثة ؟

فالحقيقة أنها أسبابٌ عدة ، كلها فروع لسبب واحد أصيل عميق . هو أن هذه الأمة نسيت نفسها ، وفقدت شخصيتها . وذلك حين نسيت الله ، وفقدت منهجه وهداه .

إن للأمة روحاً كما للفرد . الفرد بغير روح يكون مجرد شبح وجثة لا حركة فيها ولا حياة . وكذلك الأمة إذا فقدت روحها . تصبح هيكلاً قد يعجب الناظرين ، ولكنه فارغ من كل معانى القوة والحياة والإبداع .

وإن لكل أمة روحاً به تحيا وبه تتحرك ، وبه تكافح . وروح أمتنا هو الإيمان . هو الإسلام . فإذا انطفأت جذوة هذا الروح أو ضعفت ، فقد تحولت الأمة من حركة إلى همود ، من نار إلى رماد .

إن السبب الحقيقى لنكبة ١٩٦٧ هو نفس السبب لنكبة ١٩٤٨ ، وهو السبب الذى أضاع الأندلس إلى اليوم ، وأضاع فلسطين ما يقرب من قرنين فى أيدى الصليبيين .

إنه التخلى عن الإسلام وتعاليم الإسلام . وأنا أعنى « الإسلام الصحيح » بعقائده وعباداته وشرائعه وأنظمته وأخلاقه وآدابه ومفاهيمه وأفكاره ، وعواطفه ومشاعره . فالإسلام كلٌ لا يتجزأ .

(أ) وكان من نتائج التخلى عن الإسلام فقدان روح التضحية وحب الاستشهاد فى نفوس أبنائنا وجنودنا ، مما أضعف روحنا المعنوية أمام أعدائنا . وهذا هو « الوهن » الذى حذَّرنا منه رسولنا صلى الله عليه وسلم حين قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها » . قالوا : أمن قلّة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » .

وهذا هو الوهن الحقيقى الذى لا يعالجه كثرة السلاح ، ولا براعة التدريب ، ولا قوة التنظيم ولا مهارة القيادة فى التخطيط والتكتيك .

(ب) وكان من نتائج التخلى عن الإسلام انفصال العرب عن إخوانهم المسلمين الذين يبلغ عددهم نحو ٦٠٠ مليون مسلم فى أنحاء المعمورة . لأن تبنينا للقومية العلمانية وإيماننا بها تقليداً للغرب الذى آمن بها بالأمس ، وبات يكفر بها اليوم ، جرنا إلى مجافاة الأمة الإسلامية الكبيرة ، وعدم الاعتراف بها ، لأن كل تجمع أو حتى تضامن أو تقارب على أساس العقيدة والدين مظهر من مظاهر التخلف والرجعية يجب أن نبرأ منه حتى نكون عصريين تقدميين !

ومثل ذلك انفصال بعض الحكومات التى تنتسب إلى الإسلام عن إخوانهم العرب ، حين تبنوا هم كذلك مبدأ القومية العلمانية ، فوجدنا بعض هذه الحكومات القومية يعترف بإسرائيل أو يتعامل معها بصورة من الصور ، أو يقف من مأساة فلسطين موقفاً سلبياً كأن الأمر لا يعنيه .. وكان المفروض أن تهب الأمة الإسلامية عن بكرة أبيها من المحيط إلى المحيط ، لتذود عن أرض الإسلام ، وشرف الإسلام ، ولكن كيف توجد الأمة الإسلامية وقد فرّقتها العصبيات القومية والإقليمية ، والمناهج والأنظمة الأرضية والوضعية ، والمؤامرات اليهودية والاستعمارية والأنانيات الحزبية والشخصية ؟!

(جـ) وكان من نتائج التخلى عن الإسلام انفصال العرب أنفسهم بعضهم عن بعض ، فإنهم حين اتخذوا غير دين الله منهجاً وطريقاً ، وغير كتابه إماماً ودليلاً ، وغير رسوله قائداً وهادياً ، تفرّقت بهم المناهج ، واختلفت عليهم السبل ، وتشتتوا بين مختلف المذاهب والأفكار .

فهذا ينتمى إلى اليمين ، وذاك ينتمى إلى اليسار . وبين اليمين واليسار منازع واتجاهات من يمين اليمين إلى يسار اليسار . واليمين نفسه ألوان وضروب لكل منها قِبْلته ، من واشنطن إلى لندن إلى باريس ، واليسار ألوان : أحمر وأصفر ، وبينهما بُعد ما بين موسكو وبكين .

وهكذا تفرّق العرب شيعاً وأحزاباً ، ودولاً أو دويلات ، صنّفها المصنفون إلى ثوريين ومحافظين وإلى تقدميين ورجعيين .

ولم يكن فى الإمكان أن تجمعهم فكرة واحدة ، أو تضمهم راية واحدة ، لأن الفكرة الفذة التى يمكن أن تجمعهم ، والراية الوحيدة التى يمكن أن تضمهم هى فكرة الإسلام ، وراية القرآن ، وقد تخلوا عنهما فكانوا طرائق قدداً .

وهذا ما حذّر منه القرآن حيث قال الله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا

صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (١) .

فلما جدَّ الجد ، وتلبدت السماء بالغيوم كان العرب حديثاً أشبه بما كان عليه اليهود قديماً : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (٢) .

(د) وكان من نتائج التخلى عن الإسلام انفصال الحكام عن الشعوب فى البلاد العربية . فقد أصبح الحكام فى واد والشعوب العربية المسلمة فى واد ، فالحكام يؤمنون بمذاهب وضعية ، وفلسفات علمانية ، ويحكمون بقوانين أجنبية عن شريعة الله وهى شريعة الأمة . أما جماهير الشعوب فلا زالت مؤمنة بربها ودينها وقرآنها ومحمدها . وترى أن كل خير فى اتباع هدى الله والعمل بشريعة الله ، وأن كل شر وخسران فى الانحراف عن صراط الله ، وعن هدى رسول الله .

والحكام مشغولون بتوطيد سلطانهم ، وتثبيت كراسي حكمهم ، باضطهاد كل فرد أو جماعة أو حركة تعارضهم ، أو تحاسبهم ، أو تقول لهم : لِمَ ؟ وكيف ؟ فضلاً عن أن تقول : لا ، ومَن تجرأ وقال : « لا » فمآله السجن أو النفى أو حبل المشنقة . والشعوب

---

(١) الأنعام : ١٥٣ (٢) الحشر : ١٤

مشغولة بهم لقمة العيش ، وطلب الحرية والأمن ، فإن الأنظمة التى تحكمهم لم تطعمهم من جوع ، ولم تؤمّنهم من خوف .

فلما سمعت جماهير هذه الشعوب أن هؤلاء الحكام سيحاربون لم تصدق عقولهم ما سمعته آذانهم ، فقد عرفوا بفطرتهم وتجربتهم أن هؤلاء الحكام لا يعنيهم حرب اليهود بقدر ما يعنيهم القضاء على المعارضين للحكم . ولما بدأ اليهود بالضرب ، وتورط هؤلاء فى الحرب ، كانت ضمائر هذه الشعوب فى حيرة وألسنتها تتلعثم فى الدعاء لهم بالنصر والتمكين . فقد ذاقت على أيديهم من المظالم ما جعلها تخاف من انتصارهم مثل ما تكره من هزيمتهم . ولقد قال وكيل الأزهر فى مؤتمر علماء المسلمين الذى انعقد فى رجب الماضى (١٣٨٨ هـ) فى كلمته نيابة عن « الأزهر » :

« إننا لو انتصرنا - على ما كان بنا من عيوب وانحراف - لازددنا جرأة على محارم الله » .

وهذا هو الشعور الذى كان يسود جماهيرنا المسلمة ، قبيل وأثناء الحرب . وكفى بهذه الحال تعبيراً عن الفجوة الفسيحة والهوة العميقة التى حفرها هؤلاء الحكام بينهم وبين جماهير شعوبهم . وصدق الشاعر :

كفى بكَ داءً أن ترى الموت شافياً

وحسب المنايا أن يكن أمانيـا !!

(هـ) وكان من نتائج التخلى عن الإسلام انفصال الشعب نفسه بعضه عن بعض ، فلقد أثار هؤلاء الحكام بمبادئهم المستوردة فئات الشعب بعضها على بعض ، وشككوا المواطنين فى كل بلد بعضهم فى بعض . وأصبح الناس فى البلد الواحد ، بل فى الأسرة الواحدة ، يخاصم بعضهم بعضاً ، ويخاف بعضهم بعضاً ، ويكره بعضهم بعضاً . بعد أن كانوا من قبل - بفضل الإيمان - كالبنيان المرصوص ، أو كالجسد الواحد ، فى تعاطفهم وتوادهم وتراحمهم ، وبعد أن كانت الأخوة هى شعارهم والراية التى تجمعهم : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) .

ولقد بات الأب فى واد وأبناؤه فى واد : انفصال نفسى وفكرى بين الجيلين . لبُعد المسافة بين القديم والجديد ، بين المحافظة والتحرر . وبات الأخوة الأشقاء أولاد الأب الواحد والأم الواحدة ، وكأنهم أجانب بعضهم عن بعض ، فرُقت بينهم الأفكار والمبادىء والمذاهب التى أصبح كل واحد منها « ديناً » يتعبد له ، ويعتز به .

(و) وكان من نتائج التخلى عن الإسلام انطلاق الغرائز الدنيا ، وطغيان الشهوات البهيمية وانتشار المجون والفسق ، والتحلل من عقدة الفضائل والمُثُل العليا ، فالعفاف والإحصان والاحتشام

---

(١) الحجرات : ١٠

والحياء من أخلاق الرجعية المتزمتة ، وخصائص المجتمعات المتخلفة التى لم تر نور القرن العشرين .

أما اللهو والخلاعة والصور العارية أو شبه العارية والقصص الخليعة ، والأدب المكشوف والغناء الفاحش ، والأزياء المثيرة فهذه هى سمات الحضارة ، وعنوان التمدن ، وشارة التحرر من ربقة التقاليد العتيقة البالية .

فلا تعجب إذا وزعت - قبل المعركة بأيام - عشرات الآلاف من صور المطربات والممثلات على الجنود المرابطين فى خط النار ، تشجيعاً لهم ، وتقوية لروحهم !!

(ز) وأخيراً كان من نتائج تخلينا عن الإسلام : أننا دخلنا المعركة بمعزل عن الله ، شاعرين بالاستغناء عنه ، ذاكرين كل اسم إلا اسمه ، منتظرين كل عون إلا عونه ، مترقبين أى مدد من أى جهة إلا مدداً يأتى من عنده .

كانت الإذاعات العربية تشجع الجنود والضباط قائلة : قاتلوا باسم فلان واسم علان .

كانت بعض الإذاعات تلهب حماس المحاربين فى ساعات القتال الرهيبة بمثل هذه الكلمات : قاتلوا واضربوا واسحقوا العدو . إن الفنانين والفنانات من ورائكم .. إن فلانة المطربة معكم والأخرى الممثلة بجانبكم !!

أما الله وملائكته وتأييده فلم يكن فى الحساب .

دخلنا المعركة والغرور حشو رؤوسنا ، والرياء ملء نفوسنا ، والكبر ملء أنوفنا ، لم ندخلها فى تواضع المؤمنين ، وزهد المخلصين ، وصدق التائبين ، وتوبة الصادقين .

لم يقل قائد لزملائه أو لجنوده يوم الحرب ما قاله خالد يوم « اليرموك » : إن هذا اليوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، فأخلصوا لله جهادكم ، وتوجهوا لله بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده .

وهكذا خضنا الحرب بلا عقيدة ، وقاتلنا بلا إيمان .. خضناها متوكلين على الروس ، فخذلنا الروس ، معتمدين على السلاح فلم ينفعنا السلاح .

لقد وضع القرآن للمؤمنين شروط النصر عند اللقاء فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُواْ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (١) .

---

(١) الأنفال : ٤٥ - ٤٧

فهل راعينا هذه الشروط الستة ونفذناها ؟ بل هل وعيناها وحفظناها ؟ بل هل خطرت لقادتنا على بال ؟ كلا ثم كلا .

لا عجب إذن - وقد تخلينا هكذا عن الإسلام - أن يحجب الله نصره عنا ، وأن يسلط علينا عدوه وعدونا . فإنه لم يعد بالنصر إلا مَن نصره وأعزّ دينه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (١) .

هذا هو فى نظرى السبب الحقيقي للهزيمة ، وهو سبب أعمق جذوراً ، وأبعد مدى وأطول عمراً من حرب « حزيران » ، فإن ساعة الحرب هى ساعة الحصاد لما زُرِع فى أيام السلم .

فليت شعرى لماذا يقحم فريق من الناس اسم الدين واسم الله بعد الهزيمة ؟ وعندما كانوا يظنون النصر قريباً لم يجر ذكر الله على ألسنتهم ولم يخطر على قلوبهم . وإنما ذكروا « هُبَلهم » و« مُنَاتهم » و« عُزّاهم » وسائر آلهتهم التى يلتمسون عندها المدد والعون .

أجل .. لقد كانوا ينتظرون المعونة من أى جانب إلا من الله ،

---

(١) الحج : ٤٠ - ٤١

ويتطلعون إلى كل جهة إلا إلى السماء ، فلا غرو أن وكلهم الله إلى أنفسهم وآلهتهم التى يدعون من دون الله .

وتالله لو انتصروا - وهيهات - ما جعلوا لله ولا لدينه فضلاً فى ذلك ، ولكان فضل النصر حينئذ للأسلحة الروسية ، والمساعدات الروسية ، وبراعة القيادة الثورية ، ولكنهم - وقد انهزموا - يريدون أن يحملوا أوزار هزيمتهم على كاهل الدين المفترى عليه .

كان من الأسئلة التى سمعناها بعد النكبة - يطرحها الملحدون على أهل الإيمان - هذا السؤال : أين الله ؟! ولماذا تخلى عنا وكان مع اليهود ؟ ألم يعد المؤمنين بالنصر فأين النصر ؟ وهو سؤال غريب من قوم لم يكن الله لهم يوماً على بال . إنما أرادوا - بمكرهم - أن يأخذوا زمام المبادرة ويسألوا المؤمنين : أين معونة الله ؟ قبل أن تسألهم الجماهير المؤمنة : أين عون آلهتكم فى موسكو وأين نجدتهم عند الشدة ؟

إن الله موجود أيها الشيوعيون - وهو الذى خذلكم - ومكّن اليهود منكم لأنهم أقرب إلى رعاية سنن الله منكم ، قال عمر لقائده : إنما ننتصر بمعصية عدونا لله وطاعتنا له . فإذا استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة .

الله موجود يا عباد « ماركس » و« لينين » ، ولكنه - سبحانه -

لا ينصر إلا مَن نصره ، أى نصر دينه ، وأقام حدوده ، ونفذ أحكامه ، هل عرفتم اللّه حتى يعرفكم ؟ وهل حفظتموه حتى يحفظكم ؟ وهل نصرتموه حتى ينصركم ؟

إن نصره - جلَّ شأنه - مشروط بالإيمان . فهل وفيتم بالشرط حتى يفى لكم بالوعد ؟ هل حققتم شروط الإيمان ، وتحليتم بأخلاق المؤمنين ؟ هل كنتم من : ﴿ الَّذينَ إذَا ذُكرَ اللَّهُ وَجلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإذَا تُليَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ ﴾ ؟ [1] هل كنتم من : ﴿ الَّذينَ آمَنُواْ بِاللَّه وَرَسُوله ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالهِمْ وَأَنفُسهِمْ فى سَبيل اللَّه ﴾ ؟ [2] هل كنتم من الذين قال اللّه فيهم : ﴿ إنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمنينَ إذَا دُعُواْ إلَى اللَّه وَرَسُوله ليَحْكُمَ بَيْنَهُم أن يَقُولُواْ سَمعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُوْلَئكَ هُمُ الْمُفلحُونَ ﴾ ؟ [3] .

ولا أحسبكم تجادلون أنكم على شىء من هذه الخصال فضلاً عن أن تتمتعوا بها كلها كما هو شأن المؤمنين الصادقين .

* * *

---

(١) الأنفال : ٢ (٢) الحجرات : ١٥ (٣) النور : ٥١

• أعطنى إسلاماً أعطك نصراً :

لقد زرتُ تركيا فى صيف ١٩٦٧ بعد النكبة الثانية فكانوا فى استياء شديد لما حلّ بالعرب ، وقالوا لى : كيف ينهزم الإسلام أمام اليهودية ؟

فقلت لهم : إن الإسلام لم ينهزم وما انهزم قط ، والإسلام لم يدخل هذه المعركة أبداً . إنما الذى يحمل عارها هو الثورية العربية التى جرت العرب جميعاً إلى هذه الحرب ظانة أنها لن تتعدى الصياح والتهديد وعرض العضلات ؟

ولى رأى قلته فى أكثر من مناسبة : إن الحرب طوال السنين العشرين الماضية كانت بين العرب واليهود ولم تكن بين المسلمين واليهود .

فالعرب يخوضون الحرب بوصفهم : « عرباً » لا بوصفهم « مسلمين » ، ويوم يخوض العرب المعركة « مسلمين » كما كان خالد وأبو عبيدة وسعد ، سيتحول سير الأحداث ويتغير اتجاه التاريخ

* * *